

## الاستشراق الألماني في عصر الإمبراطورية

الكتاب : الاستشراق الألماني في عصر الإمبراطورية - الدين والعرق والمعرفة العلمية  
 العنوان الأصلي: *German Orientalism in the Age of Empire - Religion, Race and Scholarship*

الكاتب : سوزان مارتشند

مكان النشر : كيمبردج

تاريخ النشر : ٢٠٠٩

الناشر : كيمبردج يونيفرستي برس

عدد الصفحات: ٥٢٦

من أهل الاختصاص، فانقسموا إلى أقلية مادحة وأكثرية ناقدة، وهو ما استدعى قيام المؤلف بتناول بعض الانتقادات التي وُجّهت إليها وشرح وجهة نظرها بالخصوص.

لنُعد إلى مادة الكتاب ونؤكد أنه يملأ فراغًا كبيرًا في كتاب الاستشراق المشار إليه؛ فمن المعروف أنه أهمل المستشرقين الألمان على نحو كامل، ووجه جل اهتمامه إلى المستشرقين الإنكليز والفرنسيين، وجعل من الاستشراق الأميركي وارثًا لهم. وهناك من يرى أن إهمال إدوارد سعيد للمستشرقين الألمان لم يكن يرتكز على مرجعية وقواعد علمية، بل لأن استحضار كتاباتهم في المئة سنة التي تتعامل معها مؤلفة هذا الكتاب سيعني بالضرورة نفي أطروحته القائلة إن الاستشراق كان الأداة الاستعمارية التي وظفتها الدول المستعمرة، إذ من المعروف أنه لم يكن لألمانيا أي طموحات استعمارية في الشرق في تلك

يشي عنوان الكتاب بأن ثمة موضوعًا ما جرى تجاهله في كتابات سابقة، ويوحى في الوقت نفسه بأنه موسوعة عن الاستشراق الألماني في مئة سنة، أي بين سنتي ١٨٣٠ و ١٩٣٠.

بداية، لا بد من تأكيد التأثير الكبير لمؤلف الاستشراق الذي كتبه الراحل إدوارد سعيد ولا يزال يُستعمل مرجعًا للمادة. كما لا بد من الاعتراف بأن قراءة نحو ستمئة صفحة ليس بالأمر الهين، خصوصًا عندما تكون مادتها مبتعدة أحيانًا عن الموضوع فتخوض مؤلفته في تفصيلات حيوات المستشرقين الألمان في تلك المرحلة، لكن من دون أن تعني ملاحظتنا هذه انتقاصًا من الجهد الكبير التي بذلته في الكتاب ومن معارفها العلمية الموسعة بشأن المادة.

لقد دار حوار معمّق بين قارئ الكتاب من علماء

\* أكاديمي فلسطيني في علم الآثار، باحث في التاريخ القديم.

أن أكون في موضع القادر على إبداء رأي في ذلك الفرع من الدراسات الاستشرافية.

ربما وجب تقسيم المؤلف إلى جزأين: الأول يضم الفصول الثلاثة الأولى التي خصصتها العاملة للحدث في مجالات البحث الاستشرافي الألماني واهتماماته. الجزء الثاني يتعامل مع اتجاهات أو حركات محددة داخل الاستشراق الألماني، مع تركيز خاص على حيوات المستشرقين وعيشتهم في نوع من الانعزال عن الحياة العامة في بلادهم. وهنا نكرر اقتناعنا بأن تخصيص المؤلف جزءاً كبيراً من كتابها لهذا الجانب ما هو إلا رد مضمحل على إدوارد سعيد، ولفت الانتباه إلى الثغرة العلمية، المقصودة، التي سمح باختراقها ملفه المهم.

نظراً إلى أن الاستشراق لا يُعنى بالشرق العربي فقط، وإنما يضم أيضاً دراسات تتناول كل ما يقع على الشرق من الغرب، بل وحتى جنوبه، أي شمال أفريقيا، لكن بالبُعد الحضاري أو الثقافي للمفردات، فإن المؤلف لم تول الدراسات الخاصة بفارس والصين والهند واليابان، وغيرها، الاهتمام الكافي.

ومن المآخذ الأخرى على الكتاب إهماله التعرض للجوانب الفنية والأدبية في الدراسات الاستشرافية، وهو أمر اعترفت به المؤلف في معرض تجاوبها مع المقالات الناقدة لكتابها. وهنا لا بد من التنويه إلى عمل مهم في هذا المجال تحديداً، كتبه العاملة العراقية زينب البحرائي التي نشرت نظريتها في كتاب نساء بابل: الجنندر والتمثلات في بلاد ما بين النهرين.

في الختام، نؤكد أهمية هذا المؤلف الكبير نظراً إلى ما يحويه من معلومات مهمة عن كبار المستشرقين الألمان ومجالات إبداعهم، والأحوال التي عاشوها وعملوا فيها، وعلاقتهم الخاصة والعامة وتواصلهم مع المؤسسات الأكاديمية والحركات والاتجاهات الرئيسة في ميادين أبحاثهم. والكتاب مهم أيضاً لأنه يغني معارف القراء عن مجالات عمل كل منهم على حدة.

أخذين في الاعتبار نقاط النقد الموجهة إلى الكتاب، فلربما كان الأفضل للمؤلفة لو أنها عرضته على أنه «مقدمة في الاستشراق الألماني في عصر الإمبراطورية».

المرحلة، ولربما هذا ما دفع المؤلف إلى الخوض في تفصيلات حيوات الكثير من المستشرقين الألمان وعلاقتهم الخاصة بالمؤسسات الحاكمة، مع أنها لم تقل ذلك صراحة أو موارد، لكنها لا تنفي في الوقت نفسه أن مستشرقين ألمانيا أيدوا التوسع الاستعماري لبلادهم عندما وصل إلى ذروته في مطلع القرن الماضي، بيد أنها لم تعثر على دليل يدعم فرضية أن المؤسسة الألمانية الحاكمة اعتمدت على كتابات المستشرقين الألمان في غزواتها، أو أنها استفادت منها؛ بل إن المرء لا يجد أي أثر لقيام السلطات الألمانية باستدعاء أي مستشرق للعمل مستشاراً لديها بعدما بدأت خوض المرحلة الاستعمارية في مطلع القرن العشرين. والمؤلفة توضح أن كتابات المستشرقين الألمان في تلك الفترة استمرت في متابعة الموضوعات التي كانت بدأتها، أي الجوانب اللغوية واللاهوتية والتوراتية واليهودية وما إلى ذلك، بما يوضح أن الاستشراق الألماني لم يجعل نفسية أداة استعمارية لدولتها، من دون نفي تأييد بعض كبار المستشرقين لسياسات دولهم الاستعمارية التوسعية، بل وعنصرية بعضهم، لكن هذا أمر مختلف تماماً ولا علاقة لا بطبيعة الأبحاث الاستشرافية ولا بأهدافها التي أرى أنها كانت علمية في المقام الأول، وهو ما منحها صفة المرجعية العلمية الأكاديمية.

لا شك في أن إدوارد سعيد ظلم المستشرقين الألمان باستبعادهم كلياً عن الصورة التي رسمها في مؤلفه، على الرغم من معرفته أسماء علماء ألمان كبار قدموا دراسات استشرافية عميقة وفريدة لا يمكن تجاهلها. فهل من الممكن إهمال أبحاث أصيلة وبالغة الأهمية لمستشرقين كبار مثل تيودور نلدره وإغناز غولدتسير وكارل بركلمن وماكس ملر وغيرهم؟ في ظني أن استبعادهم عن كتاب الاستشراق كان متعمداً وظلماً وتسويفاً لا مبرر له من وجهة نظر سياسية.

وقد تبين لي حين كنت أقوم بأبحاثي عن الشرق في ألمانيا أن معظم المراجع العائدة إلى فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية هي لمستشرقين ألمان، لكن من دون إهمال بعض المساهمات الإنكليزية والفرنسية. وحال عدم إلمامي باللغة الروسية دون